المرافعة

أو دفاع صبراتة

تأليف: لوكيوس أبوليوس
ترجمة: عمّار الجلاصي



المرافعة

أو دفاع صبراتة

تأليف: لوكيوس أبوليوس
ترجمة: عمّار الجلاصي



أعده للنشر موحمد ؤمادي

ملاحظة: لقد إعتمدنا نسخة السيد الجلاصي لم فيها من دقة، بالرغم من أن الكتاب كان قد ترجم من قبل الأستاذ علي فهمي خشيم عن الإنجليزية تحت إسم دفاع صبراتة، التي بدورها كانت قد ترجمت عن اللاتينية، وبهذا تكون النسخة التي بحوزتنا الوحيد المترجمة مباشرة عن اللأتينية.

مقدّمة المترجم

هـذا النّصّ للوكيـوس أبوليوس، المولود في مـادورة (مدوُروش بالجزائر) حوالي 125 م والمتوفّى بقرطاج بعد 170، دفاع عن نفسه أمـام والي إفريقيـة الرّومانيّ في قضيّة رفعهـا ضدّه إمليانوس أخُ زوج الأرملـة الثّريّـة بودنتلّـة التي تزوّجها قبل أشـهر. دافعه الأساسـيّ حسـب النّصّ محاولة إزاحة هذا الدّخيل والاستئثار بثروتهـا. ولعـدم وجود أسـاس قانونيّ لمقاضاته لفّـق ضدّه تلك التّهمـة التي عقابهـا الإعدام فـي حالة ثبوتهـا. وللإفلات من التّتبّعـات إن لم تثبت قدّم الدّعوى باسـم ابن أخيه بودنس الذي لم يبلـغ الكفـاءة القانونيّـة. لبودنتلّة من زوجهـا المتوفّى منذ 14 سـنة ابن أكبر يدعى بنتيانوس تـزوّج قبيل زواجها ومات بعد مـرض ألمّ به وهـو في طريقه مـن قرطاج إلى أويـة (طرابلس) مسـرح الأحداث. وحموه روفينوس الذي يرسـم الكاتب له صورة كاريكاتوريّـة ضالع مع إمليانوس، لأنّه يخطّـط لتزويج ابنته من أخيه بودنس. ملخّص التّهمة أنّ أبوليوس سـحر الأرملة التي لم ترغب في الزّواج طيلة 13 سـنة لتتزوّجه ويسـتولي على ثروتها. مضـى المتّهم يفنّـد أدلّة المدّعـي، لكنّ كلامه يوحـي باهتمام

شديد ومعرفة واسعة بالسّحر. ونترك للقارئ لذّة اكتشاف تلك الأدلّة وردود المتّهم.

لا توجد قرائن تاريخيّـة خارجيّة على وقوع هذه المحاكمة التي ربّما تمّت في 159/158 كما يُسـتنتج من بعـض القرائن. لكن قد تكـون كذبة أدبيّة. ومهمـا يكن من أمر، فهي تثبـت مع "الحمار الذّهبيّ" الذي تُستحسَن دراسته مقترنا بها، تثبت:

- سـعة ثقافـة أبوليـوس اللاّتينيّـة واليونانيّـة واهتمامـه بالفلسفة والعلوم الطّبيعيّة.
- اهتمامـه الشّـديد بالسّـحر والطّقوس الدّينيّـة والحالات النّفسـيّة حيث يختلط الواقع بالوهـم، كالحلم والجنون والصّرع والهذيان النّبويّ والشّطح الصّوفيّ وازدواج الشّخصيّة...
- تفنّنه وإبداعه في شتّى أساليب البلاغة من جناس وتورية ومقابلة وغيرها. فسـواء مارس السّـحر أو لا هو بالتّأكيد ساحر الكلمات.
- تنوّع أسلوبه السّاخر الطّريف والظّريف، من التّورية الخفيّة إلى المدح للذّمّ إلى الهجاء المقذع.

للنّصّ، بجانب أهمّيّته الأدبيّة وما يتضمّن من معلومات حول سـيرة حياة أبوليوس وشخصيّته، قيمة تاريخيّة هامّة فهو يفيد في مجالات كدراسة الأسرة والقانون والسّحر وأديان المسارّة في العالـم الرّومانيّ ومدى التّأثير الرّومانيّ واسـتمرار بعض عناصر الثّقافـة الفينيقيّـة فـي إفريقية بعـد ثلاثة قرون مـن ضمّها لرومية.

أخيراً نرجو أن نكون قد وُفّقنا في ترجمتنا لهذا الكتاب وساهمنا في تعريف القارئ الشمال إفريقي بهذا التّراث الذي وإن لم يؤثّر في أدبنا قديما إلا أنه له مكانة في الأدب العالميّ. والله وليّ التّوفيق.

عمّار الجلاصيّ، 15 ديسمبر/ كانون الأوّل 2001

افتتاح

كنتُ واثقا حقّا يا مكسيموس كلوديوس ويا أعضاء المجلس، وأعدّ حقيقة ثابتة أنّ سيكينيوم إمليانوس، هذا الشّيخ المعلوم سفهه للجميع*، سيملأ دعواه المقدّمة ضدّي أمامك قبل التّفكير المتروّي بمحض افتراءات لانعدام جنايات. إذ يمكن لا شكّ اتّهام أيّ شخص لكن لا يمكن أن يدان إن لم يذنب. لهذا السّبب بالأخصّ أهنّئ نفسي مطمئنّا وحقّ الآلهة، فلديّ الوسيلة والقدرة، إذ قُيّض أن تكون أنت القاضي، لتنقية صفحة الفلسفة* أمام العوامّ وإثبات براءتي. وإن بدت هذه التّخرّصات لأوّل وهلة خطيرة إذ تجعل من الصّعب ارتجال دفاع* لم أفكّر فيه سابقا.

فكما تذكر لمّا رفعتُ قبل خمسة أو ستّة أيّام قضيّة باسم زوجتي بودنتلّة ضدّ آل غرانيوس بدأ أشياعه يهاجمونني بنشر إشاعات عنّي وأنا في شُغُل عمّا يأفكون، ويتّهمونني بمزاولة أعمال السّحر* الأثيمة وبقتل ربيبي بنتيانوس. ولمّا تأكّد لي أنّهم لا يعرضون جرائم على المحكمة وإنّما يروّجون افتراءات بغرض المناوشة، تحدّيتُهم طالبا بإلحاح تجاوز ذلك إلى إقامة دعوى. لكن لمّا رأى إمليانوس تأثّرك الشّديد بالمسألة، وأنّه أثار قضيّة بمجرّد

كلمات، شرع في بحث يائس عن مخرج له من مأزق سفاهته.

مناورات المدّعي

لذا وبعد إجباره على رفع دعوى، نسي فورا أنّه كان قبل مدّة قصيرة يقيم ضجّة زاعما أنّي قتلت بنتيانوس ابن أخيه. هكذا سكت فجأة عن موت قريبه الشّاب. بدا كأنّه كفّ تماما عن الحديث عن جرم بذلك الحجم واختار الاكتفاء بفرية السّحر التي إشاعتها أسهل من إثباتها.

لم يجرؤ طبعا على اتّهامي جهارا. بل عمد من الغد إلى تقديم الشّكوى باسم ربيبي سيكينوس بودنس، الذي لا يزال غلاما، ونصّب نفسه وكيلا لمساعدته، في أسلوب مستجدّ لمهاجمة الغير، وذاك طبعا قصد التّذرّع بحداثته كيلا يعاقَب هو نفسه على اتّهامي باطلا. ولمّا تفطّنتَ بثاقب نظرك إلى ذلك فأوعزتَ إليه بإعادة رفع الدّعوى المعروضة باسمه هو، وعد بأن يفعل كذلك، أن يتصرّف حقّا بحيث يمكن الجِلاد معه وجها لوجه، لكنّه، وخلافا لتعليماتك، ظلّ بعناد يناوش من بعيد بترويج الأراجيف. هكذا دأب على الفرار من خطر اتّهام الغير جزافا إلى وضع مساعدة القاصر المريح.

لذا ومن قبل المرافعة، كان سهلا على كلّ أحد إدراك أيّ نوع من الدّعوى ستكون تلك التي يخشى صاحبها وملفّقها رفعها باسمه. والحال أنّ سيكينيوس إمليانوس لو عثر على أدنى دليل حقيقيّ يدينني لما أبدى قطعاً مثل ذلك التّردّد في تقديم شكواه برجل غريب يرميه بذاك الكم الهائل من كبريات الجرائم، هو الذي

اتّهم بالتّزوير وبإصرار وصيّة عمّه مع علمه بصحّتها حتّى أنّه لمّا أعلن لولّيوس أُربيكوس سامي المقام بعد استشارة ذوي الرّأي أنّها تبدو صحيحة ويجب اعتمادها، ظلّ هذا السّفيه يحلف مخالفا صوت الحقّ البيّن أنّ الوصيّة مع كلّ ذلك مزوّرة حتّى أنّ لولّيوس أربيكوس لم يتمالك نفسه إلاّ بمشقّة عن إدانته

3 - خزي شانئيه

وإنّي لأرجو، واثقا من عدلك ومن براءتي، أن يلعلع ذلك الصّوت في هذه المحكمة أيضا. فمن السّهل أن يتّهم بريئا مع العلم ببراءته من ثبت عليه الكذب سابقا، كما أسلفتُ، في قضيّة خطيرة أمام محافظ المدينة*. فكما يحذر الكريم بمنتهى الحرص والتّيقّظ ارتكاب خطإ مرّة أخرى، يزداد لئيم الطّبع ثقة بنفسه وكلّما تمادى في الإجرام ازداد مجاهرة بفعاله. فالحياء كالثّوب كلّما زاد بلىً نقص اعتناء صاحبه به. لذا أرى لزاما لصيانة شرفي أن أفنّد قبل الدّخول في صلب القضيّة كلّ الأقوال المغرضة.

فأنا هنا آخذ على عاتقي الدّفاع لا عن نفسي فقط بل كذلك عن الفلسفة التي ترفض رفعتها أدنى مذمّة كجرم كبير. لذلك أشاع محامو إمليانوس في لغوهم المأجور كثيرا من الافتراءات الملفّقة ضدّي خاصّة وأخرى اعتاد السّوقة توجيهها للفلاسفة عامّة. ولئن أمكن اعتبار تلك الأقاويل لغوا باطلا يشاع رجاء فائدة ومقابل ثمن، وأعمالا مأجورة تدفع جعالتَها السّفاهةُ ونوعا من السّمّ دأبت ألسنة المحامين وفق عادة راسخة مقبولة لديهم على نفثه لإيذاء الغير، لا بدّ لي مع ذلك من دحضها

ببضع كلمات دفاعا عن نفسي. كيلا أبدو لأحد، أنا الذي أبذل كلّ جهد لئلا أدع وصمة أو مذمّة تلحق بي، إن تغاضيت عن ذلك كلغو تافه، بمظهر المعترف لا المستخفّ به. فمن شيمة النّفس الحرّة الكريمة، في اعتقادي، التّأثّر بالثّلب. حتّى الذين يعلمون أنّهم أساؤوا إلى غيرهم لمّا يسمعون ما يقال عنهم من سوء، يتأثّرون كثيرا ويغضبون وإن أخذوا يعتادون منذ بدئهم في عمل الشّرور على سماع المذمّة. إذ يعلمون في قرارة أنفسهم حتّى إن أغضى الآخرون عن فعالهم أنّهم يستحقّون التّأنيب. لكنّ أيّ شخص صالح ناصع الصّفحة دمث الخلق لم تعتد أذناه سماع المسبّة، ألف الثّناء لا الذّمّ، يشقّ عليه ويحزنه أن تقال عنه باطلا مذامّ هو أحقّ بمؤاخذة شاتميه بها. لذا إن أبدُ ربّما لأحد كأنّي أريد دفع ترّهات بيّنة السّخف والحمق، فيجب أن يعاب ذلك على من أتوا خزيا بقذفي بتلك الشّتائم، لا أن ألام أنا الذي سأُبعد بتفنيدها أيّة وصمة عن شرفي.

4 - الرّدّ على تهمة التّأنّق

سمعتَ إذن قبل قليل في بداية الدّعوى هذا القول: "نتّهم لديك فيلسوفا متأنّقا بلغ في اليونانيّة واللاّتينيّة معا- يا للجرم الشّنيع!- قمّة الفصاحة"*. بهذه الكلمات إن لم أخطئ افتتح لائحةَ الادّعاء ضدّي تنّونيوس بودنس الذي قطعاً ما له في الفصاحة من خَلاق. فليته أصاب في اتّهامه لي بهذين الجرمين الخطيرين: الأناقة والفصاحة! إذن لما وجدت صعوبة في إجابته بما أجاب به إسكندرُ* هوميروس* هكتورَ*:

"لا يحقّ ازدراء عطايا الآلهة الرّائعة، تلك التي يمنحونها وحدهم، وليس بمقدور أحد نيلها بنفسه".

ها أنا الآن سأردّ على مطعن الأناقة. ويحك! من حقّ الفلاسفة أيضا أن يكونوا أنيقي المظهر. هذا فيثاغور* أوّل من اتّخذ اسم فيلسوف كان واحد زمانه وسامة. كذلك زينون الإيليّ* والذي سبق الجميع إلى حلّ المفارقة المعروفة بطريقة بارعة، كان له من الوسامة الحظّ الأوفى كما يؤكّد أفلاطون*. والأمر مماثل في عدّة فلاسفة يروى أنّهم كانوا حسني المظهر ويتّخذون وسائل الزّينة تعزيزا لبهاء أجسامهم الطّبيعيّ. لكنّ هذا الدّفاع كما قلتُ لا يخصّني، فما أوتيتُ من الحسن إلاّ قليلا. ناهيك أنّ انقطاعي إلى العمل الأدبيّ يزيل عن جسمي كلّ مسحة من جمال ويُكلّ قوامي ويمتصّ نضرتي ويُبهت سحنتي وينهك قوّتي. وحتّى شَعري الذي زعم خصومي في كذب سافر أنّي تركته يطول قصد التّزيّن ترى مدى أناقته ونعومته، فهو مهوّش ومشوّش بنحو مريع، ككبّة من المشاقة، قافّ بدون اتّساق، أشعث وملبّد حتّى ليتعذّر تخليصه لطول ما أهملتُ تصفيفه، بل حتّى مجرّد تسريحه وتمشيطه. وفي ذاك ما يكفي في اعتقادي لتفنيد تهمة شَعري التي عدّوها جريمة تستوجب الإعدام.

5 - الرّدّ على تهمة الفصاحة

أمّا الفصاحة، فإن يك لي فيها حظّ، فلا ينبغي أن يُعدّ ذلك أمرا غريبا ولا مكروها، إذ عكفتُ منذ فجر العمر على دراسة الأدب على أبرز رجاله، مزدريا في سبيل ذلك كلّ ملاذّ الحياة الأخرى،

ولعلّي نشدتُها أكثر من كلّ النّاس بمجهود جبّار ليلا ونهارا دون مراعاة لصحّتي وعلى حسابها. لكن لا يخافُنّ قطّ من الفصاحة التي إن أظهرتُ منها نزرا يسيرا، فأنا لا أبديها بقدر ما أرجّيها.

وإن صحّ فعلا أنّ ستاتيوس قيقليوس* على ما يقال كتب في بعض شعره أنّ البراءة* هي الفصاحة، فإنّي من جهتي أنادي بهذا الرّأي وأؤكّد أنّي لا أقصر عن أحد في باب الفصاحة. من فعلاً يعيش بنحو أفصح بهذا المعنى منّي أنا الذي لم أفكّر أبدا بشيء لا أجرؤ على التّصريح به؟ بل أقول إنّي الأفصح لأنّي اعتبرتُ دوما كلّ إساءة جرما شنيعا، والأطلقُ لسانا إذ لا يصدر عنّي فعل ولا قول لا يمكنني إعلانه أمام الجميع. وها أنا الآن سأناقش الأبيات التي نظمتُها وقدّموها على أنّها شائنة. بينما لاحظتَ أنّي كنت أضحك من شدّة غضبي* لأنّهم ألقوها بطريقة منحرفة تنمّ عن جهلهم.

6 - أبياته عن مسحوق الأسنان

قرؤوا أوّلا من أشعاري الفكاهيّة رسالة عن مسحوق للأسنان* كتبتها إلى أحد يدعى كَلبُرنيانوس لم يرحين عرض تلك الرّسالة في رغبته لإيذائي كحجّة ضدّي أنّه إن وُجد فيها شيء يدلّ على إجرامي فهو مشترك بيننا. فالأبيات تُثبت أنّه طلب منّي شيئا لتنظيف أسنانه:

"كلبرنيانوس، أقرئك في هذه الأبيات العجلى السّلام. بعثت لك كما طلبتَ منظّفات لأسنانك، ستمنح فمك نضرة وسناً، مشتقّة من أصماغ بلاد العرب: مسحوقا دقيقا ناصعا فائق

الجودة لإزالة القلح المتراكم على أسنانك، كيلا تُرى لطخة الخلوف المقرفة ولتضحك إن ضحكت بملء فيك."

أسأل: أيّ معنى أو لفظ في هذه الأبيات يستوجب الخجل، أيّ شيء لا يحبّ الفيلسوف أن يُنسب إليه؟ إلاّ إن استحققتُ اللّوم لإرسالي إلى كلبرنيانوس مسحوقا من أصماغ بلاد العرب، هو أليَق بكثير من عادة الإيبريّين المقرفة "تلميع أسنانهم ولثّتهم ببولهم على ما يروي كاتلّوس*.

7 - العناية بنظافة الفم والأسنان

رأيتُ البعض قبل قليل لا يكادون يتمالكون أنفسهم عن الضّحك لمّا هاجمني خطيبنا بشراسة حول مسألة نظافة الفم وأدان باستنكار شديد مسحوق الأسنان كما لم يسبق لأحد أن أدان السّموم. ولِم لا؟ يجب ألاّ يستخفّ الفيلسوف بتشنيع بعضهم عليه عدم سماحه لأيّ وسخ بملامسته، ولا تحمّله أيّة قذارة أو عفونة على ما ظهر من جسمه، وبالأخصّ الفم الذي يستخدمه الإنسان بكثرة علنا وأمام النّاس، سواء لتقبيل أحد أو لمحادثته أو لإلقاء خطب في قاعة الدّرس أو لتوجيه صلوات في المعبد. لا شكّ أنّ الكلام يسبق أيّ فعل من أفعال الإنسان وينطلق، كما يقول الشّاعر الفذّ، من سور الأسنان*. خذ الآن أحدا بمثل فصاحته: سيؤكّد بطريقته ضرورة الإقرار بأنّ العناية بالفم أهمّ عند صفوة النّاس من العناية بأيّ جزء آخر من الجسم فهو بهو الفكر وباب الكلام ومنتدى الأفكار.

من جهتي لو سئلتُ عن رأيي لقلتُ إنّ لا شيء أثقل على

الرّجل الحرّ الكريم من سماحة الفم. فهذا العضو من الإنسان رفيع المكان بارز للعيان متداول الاستعمال. وبينما الفم في الحيوانات، برّيّها وداجنها، وضيع وموجّه إلى أسفل صوب قوائمها، قريب من الكفّ والطّعام، يكاد لا يرى قطّ إلاّ إن ماتت أو كشّرت للعضّ، لا شيء أسبق منه للرّؤية في الإنسان الصّامت ولا أبرز للعيان في المتكلّم.

8 - السّخرية من إمليانوس. مثال التّمساح

لذا أودّ أن يجيب منتقدي إمليانوس سؤالي هل اعتاد قطّ غسل قدميه، فإن لم ينف ذلك هل يدّعي أنّه يجب إيلاء عناية أكبر بنظافة القدمين من الأسنان. لا شكّ عندي أنّ شخصا مثلك يا إمليانوس لا يكاد يفتح فاه أبدا لغير الشّتائم والافتراءات لا يولي فمه أدنى عناية ولا ينظّف بالمساحيق المجلوبة من البلاد البعيدة أسنانه التي أَوْلى به حكّها بفحم من محرقة الموتى، ولا يغسلها حتّى بالماء العاديّ. فليقرّ في القذارة والقمامة لسانُه المؤذي نافث الأكاذيب والنّمائم. إذ ما الجدوى، تبّا لك، من امتلاك لسان نقيّ وسليم مع التّفوّه بكلام قذر وكريه، ونفث سمّ أسود من أسنان في بياض الثّلج كالأفعى؟

يُحقّ من يبادر، لعلمه أنّه سيلقي كلاما نافعا يسرّ السّامعين*، إلى غسل فيه كالإناء قبل ملئه بزكيّ الشّراب. وفيم أطيل الحديث عن بني البشر، وأنا أرى التّمساح، هذا الوحش الجبّار الذي ينشأ في نهر النّيل، يقدّم للتّنظيف أسنانه فاغرا فاه دون إيذاء أحد. فإنّ له فما عظيما دائم الصّمت ويبقى جلّ الوقت

مغمورا في الماء، ينحشر بين أسنانه كثير من العلق، حتّى إذا خرج على ضفّة النّهر، فتح فاه فأتى طير صديق من طيور النّهر فالتقطها مولجا فيه منقاره دون أن يخشى أذى*.

9 - ردّ تهمة التّشبيب الخليع

أدع الآن هذا، وآتي إلى أبيات أخرى من تلك التي يدعونها شعرا غزليّا*. بيد أنّهم ألقوها بغلظة وفظاظة جعلتاها تثير الاشمئزاز. لكن أيّ سحر أو أيّ سوء في أنّي تغزّلت في قصيدة بغلامين لصديقي اسكريبونوس لايتوس؟ أم تُرى أنا ساحر لأنّي شاعر؟ من سمع بهذا الصّدد شبهة قابلة للتّصديق أو مظنّة سهلة التّرجيح أو حجّة مقبولة للأذهان كقولهم: "نظم أبوليوس أبياتا من الشّعر"؟ إن كانت سيّئة فذاك جرم لعمري، لكن جرم شاعر لا فيلسوف، وإن كانت جيّدة ففيم اتّهامكم لي؟

"لكنّه نظم أبياتا غزليّة عابثة". أتلك جرائمي إذن؟ إنّكم تخطئون لعمري في تسميتها إذ تحيلونني على المحكمة بتهمة السّحر. الواقع أنّ آخرين نظموا مثلها وإن كنتم لا تعلمون. عند اليونان الشّاعر التّيوسيّ* وكذلك اللّخدمونيّ* والقيوسيّ* وشعراء آخرون لا يُحصَون، وكذلك الشّاعرة اللّسبيّة* كتبتْ بأسلوب خليع لكن فيه رقّة أصلحتْ دعارة لغتها بحلاوة أشعارها. أمّا عندنا فهناك إيديتُووس* وبُركيوس* وكاتُلّوس، من بين آخرين لا حصر لهم.

"لكنّهم ليسوا فلاسفة". أتنكر إذن أنّ صولون كان رجلا جادّا

وفيلسوفا وهو صاحب هذا البيت الماجن:

"أتشهّى فخذيك وثغرك العذب"*؟

أيّـةَ جرأة تحتوي كلّ أشـعاري مقارنة بهـذا البيت وحده؟ هذا ودون ذكر كتابات كثيرة من نفس اللّون لديوجين الكلبيّ* وزينون* مؤسّس الرّواقيّة، سأعيد إلقاء الأبيات المعيبة عليّ ليعلموا أنّي لا أخجل بها.

"كرتياس أنت لذّتي وخلاصي. ويبقى لك في وجداني نصيبك يـا حياتـي خارينوس. لا تخـف: لتحرقْني نـارك وناره كما تشـاء فلأصبـرنّ على هذيـن اللّهبين ما دمتما لـي*. ليتني بهذا أكون عندكما ما يكون الواحد عند نفسـه. سـتكونان إذن لديّ بمثابة عينيّ".

سـألقي الآن الأبيات الأخرى التي قرؤوها آخرا على أنّها الأكثر مجونا:

"ضفائـرَ مـن الزّهور، وأعـذبَ الهـوى وهذه الأبيـاتَ أهديك: أشـعاري أقدّم لك، ضفائر لروحك، أشـعارا لنتغنّى بهذا السّـنا الحبيب الذي يهـلّ عليك في ربيعك الرّابع عشـر*، وضفائرَ أيضا لتزدهـي أوقاتـك في ربيع عمـرك السّـعيد، وتزيّنَ بالأزهـار زهرة شبابك، وتعطيني في مقابل زهرة الرّبيع ربيعَك، فتربيَ بهداياك على هداياي. وتردّ لي مقابل الزّهور المضفورة ضمّة من جسـمك، ومقابل الورود قُبَلا من شـفتيك المتورّدتين. ولئن ألهمتَ بعطائك روحي، فستولّي أناشيدي هزيمةً أمام شبّابتك العذبة".

10 - الغلمانيّات في شعر اللاّتين وأفلاطون

هـذه جريمتي يـا مكسـيموس بـين يديـك، قوامهـا ضفائر وأناشـيد ماجن خليع. لاحظتَ لا شـكّ أيضا أنّهم يأخذون عليّ تسـمية الغلامين خارينوس وكرتياس تماشـيا مع عادة تسـمية الغلمان بغير أسـمائهم. فليقيمـوا إذن دعوى حول نفس الفعل على كسّـيوس كاتلّوس لأنّه يدعو كلودية باسـم لسبية، وعلى تيكيـدا* لأنّه كتب بيرلّة مـكان ميتلّة، وعلـى بروبرتيوس* لأنّه يصـرّح بكُنتيـة مخفيا هُسـتية، وعلى تيبلّـوس* لأنّ في فؤاده بلانية وفي شـعره دالية. وإنّي لأدين قطعا كسّيوس لوكليوس*، وإن يكن من شعراء النّقد، لأنّه أفسد الغلامين غنتيوس ومقدون لإطلاقه عليهما اسـميهما الحقيقيّين في شعره. بينما يبدو لي أخيرا شـاعر منتُـوة* أكثر رصانـة إذ تغزّل مثلـي بغلام صديقه بولّيون في شعره الرّعويّ الخفيف متخلّيا عن الأسماء الحقيقيّة، مسمّيا نفسه كوريدون وغلامه ألكسيس.

لكنّ إمليانوس، الأجفى من رعاة الأغنام والأبقار الذين نجدهم في شعر ورجيليوس*، الدّائم الغلظة والجلافة، بل الأشدّ صرامة من سرّانيوس* وكوريوس* وفبريكيوس* ولِفّهم ينكر صدور شعر كهـذا عن فيلسـوف أفلاطونـيّ. ما قولـك إذن يـا إمليانوس لو علّمتُك مثله من نظم أفلاطون نفسـه الذي لم يبق من شعره سـوى بضعة أبيات في الغزل؟ فقد أحرق بالنّار بقيّة أشعاره في ظنّي لأنّها لا تضاهيها جمالا. تعلّمْ إذن، إن كنتَ في مثل سـنك قادرا على تعلّم الأدب، هذه الأبيات لأفلاطون في الغلام أستير*:

"أستير، كنتَ تسطع بين الأحياء كنجم الصّباح، وها أنتَ اليوم ميتا تسطع بين الموتى كنجم المساء".

كذلك هذا الشّعر الذي نظمه نفس الفيلسوف في الغلامين ألكسيس وفدروس:

"لمّا تغنّيتُ السّاعة بحسن ألكسيس رنتْ إليه من كلّ صوب أنظار الجميع. فلِم تكشف يا قلبي للوحوش الطّريدة؟ تذكّر أنّا بهذا النّحو فقدنا فدروس؟"

كيلا أطيل في ذكر أشعاره الكثيرة في هذا الباب، سأختم بهذا البيت في ديون* السّيرقوسيّ:

"ديون، بحبّك أضنيتَ قلبي".

11 - المجون في الشّعر غير المجون في الحياة

لكن ألا أخالف قواعد اللّياقة بذكر هذا في محكمة؟ أم أنتم بالأحرى تخالفونها أيّها المفترون بذكرها في دعوى كما لو كان في عبثي الشّعريّ أيّ مؤشّر على أخلاقي؟ أما قرأتم ردّ كاتلّوس على منتقديه:

"يليق بالشّاعر نفسه أن يكون عفيفا مستقيما، لكن لا ضرورة لأن تكون أشعاره كذلك"؟

لمّا كرّم هدريانوس* الإلهيّ قبر صديقه الشّاعر ووكونوس*، كتب عليه ما يلي:

"لقد كنتَ خليعا في شعرك، عفيفا في فؤادك".

ا كان ليقول ذلك أبدا لو وجب اعتبار تلك الأشعار الرّقيقة

دليلا على مجونه. هذا وأذكر أنّي قرأت لهدريانوس الإلهيّ نفسه أيضا أشعارا كثيرة من هذا القبيل. أفتجرؤ يا إمليانوس على القول إنّ ما فعل الامبراطور والحسيب* هدريانوس الإلهيّ وترك تخليدا لذكره عمل سيّء؟ ثمّ أتحسب مكسيموس سيجرّم ما يعلم أنّي فعلتُ اقتداء بأفلاطون؟ والحال أنّ أبياته التي عرضتُ الآن من النّقاوة بمثل ما هي من الجلاء، ومن الاحتشام في صياغتها بمثل ما هي من الصّراحة في إعلانها. وإنّ إخفاء هذه الأشعار وكلّ ما شابهها والتّستّر عليها لمن فعل المذنب بينما التّصريح والجهر بها من فعل العابث. فلقد منحت الطّبيعة للبراءة صوتا ولفّت بالصّمت الرّذيلة.

12 - الحبّ البهيميّ والحبّ الرّوحانيّ

ذا أدع جانبا قول تلك الكتابات الأفلاطونيّة الإلهيّة الرّاقية المعروفة لندرة من العقلاء، والمجهولة عند كلّ العوامّ بأنّ فينوس* ذات طبيعة مزدوجة، يحكم كلّ جانب منها نوع الألفة والألّاف الخاصّ به: جانب سوقيّ مبتذل يحكم حبّ العامّة، لا النّفوس البشريّة فقط بل كذلك البهائم، داجنها وبرّيّها، ويجمع في عناقه الوحشيّ بقوّة عاتية عنيفة أجساد الكائنات الحيّة الخاضعة لجبروته، ويدفعها إلى الشّبق، وجانب إلهيّ سام: فينوس السّماويّة التي بيدها العشق الرّاقي النّبيل، ويقتصر تأثيرها على البشر بل على قلّة منهم، ولا تدفع أتباعها بأيّة مناخيس أو مغريات إلى المخزية، لأنّ العشق الخاصّ بها، غير اللاّهي ولا المريح، بل الجدّيّ والمضني، يحبّب لصنف العشّاق الخاصّ به الفضائلَ بجمال العفّة المميّزة له. ولئن استلطف الأجساد الجميلة، فهو

يستنكف عمّا يسيئ إلى جمالها. إذ ليس في جمال الأجساد ما يستحقّ الحبّ سوى أنّها تذكّر الأرواح بجمالها الذي رأته في وجود سابق بين الآلهة نقيّا وحقيقيّا. لذا كتب أفرانيوس* بأناقة أسلوبه المعتادة هذه الحكمة المأثورة عنه: "الحكيم يحبّ وغيره يشتهي". لكن إن أردتَ الحقّ يا إمليانوس وعلى افتراض أنّك تستطيع أبدا فهم هذا الكلام، لا يحبّ الحكيم بقدر ما يتذكّر ذاك الوجود الأسبق*.

13 - الرّدّ على تهمة مطالعة وجهه في المرآة

فلْتسمح لأفلاطون الفيلسوف بأبياته الغزليّة كيلا أرى لزاما أن أتّخذ حول أمور كثيرة موقفا فلسفيّا مضادّا لرأي نيوبطليموس* بطل إنّيوس*. وإن لم تفعل فسأقبل بسرور أن يوجّه لي الاتّهام مع أفلاطون بشأن أبيات من هذا النّوع. أمّا أنت يا مكسيموس، فبكلّ امتنان أشكرك على حسن استماعك إلى استطرادات دفاعي هذه التي اضطرّني إليها الرّدّ على تهمهم. كما أرجو أن تصغي إلى بقيّة دفاعي ضدّ تلك التّهم بانتباه وطيب خاطر كما فعلتَ حتّى الآن.

تلي فعلا في لائحة اتّهاماتهم تلك الخطبةُ التّشهيريّة الطّويلة عن المرآة التي انفجر بخصوصها بودنس، أو كاد، صارخا مستشنعا: "فيلسوفنا عنده مرآة! فيلسوفنا يملك مرآة!"* أنا من جهتي أسلّم بامتلاكها، كيلا تظنّ لو أنكرتُ أنّك وجدتَ فيّ مطعنا. لكن لا يلزم أن يُفهم من ذلك أنّي أثابر على التّزيّن أمام المرآة. ماذا إذن؟ أرأيتم لو كنتُ أملك عُدّة تمثيل هل تستنتجون

من ذلك بالمثل أنّي اعتدتُ ارتداء عباءة ممثّل المأساة الطّويلة أو ثوب ممثّل الملهاة الفاقع أو جلباب المهرّج المبرقش؟ لا أعتقد. في المقابل أَعدِم أشياء كثيرة ومع ذلك أتمتّع باستعمالها. وإن لم يكن امتلاك شيء دليلا على استعماله، ولا عدم امتلاكه دليلا على عدم استعماله، وليس القدْح في امتلاك المرآة بقدر ما هو في مطالعتها. لزم أن تعلم أيضا متى وبحضور أيّ شهود نظرتُ في المرآة فأنت، كما هو واضح، ترى المرآة عند الفيلسوف جريمة أبشع من نظر الجاهل بأسرار كيريس* إلى عُدّة زينتها المقدّسة.

14 - مدح المرآة

والآن إن سلّمتُ فرضا واعترفتُ بأنّي نظرت فيها، أيّ جرم هو لا أبا لك أن يعرف امرؤ صورته، لا مثبّتة في مكان واحد، بل تحت الطّلب في مرآة صغيرة يحملها حيثما شاء؟ أتجهل أنّ لا شيء تسرّ مشاهدته المرء مثل صورته؟ فأنا أعلم جيّدا أنّ أحبّ أبنائنا إلينا من يبدون شبيهين بنا وأنّ الدّولة تقدّم لأيّ مواطن لمكافأة خدماته الجلّى تمثالا له لينظر إليه. وإلاّ فلم يحبّ النّاس تماثيل لهم وصورا من إعداد شتّى الفنون التّشكيليّة؟ أيعتبرون ترى ما تعدّه صناعتهم جديرا بالمديح وما تقدّمه الطّبيعة خليقا بالإدانة، والحال أنّها أحقّ كثيرا بإعجابنا ويتوفّر فيها عنصرا اليسر والمماثلة. لا شكّ أنّ عملا طويلا يُبذل لإعداد كلّ الصّور التي تبتدعها يد الإنسان، ومع ذلك لا تظهر محاكاة الواقع فيها كما تظهر في المرآة، إذ تُعوز الصّلصالَ الحيويّةُ، والحجرَ النّضرةُ، والرّسمَ الصّلابةُ، وجميعَها الحركةُ التي تكفل مطابقة الواقع بأمانة فائقة، لمّا تُرى الصّورة مرتسمة فيها بنحو عجيب، تامّةَ

الشّبه بصاحبها وكذلك متحرّكة ومتجاوبة مع كلّ إيماءة منه. وهي دوما ندّ متأمّلها، منذ مطلع الصّبا حتّى أفول المشيب، تتقمّص كلّ أطوار العمر وتشارك الجسم شتّى أحواله، وتحاكي كلّ هيئات الإنسان في فرحه وفي ألمه. والحال أنّ ما شُكّل من الطّين أو سُبك من النّحاس أو نُحت من الحجر أو نُقش في الشّمع أو رُسم بالصّبغ أو مُثّل بأيّة صناعة إنسانيّة، يغدو في مدّة غير طويلة مختلفا عن الواقع، ويحمل وجها جامدا ثابتا على حاله كالجثّة الهامدة. فلكم تفوق الفنونَ التّشكيليّةَ في محاكاة الواقع صفحةُ المرآة الصّقيلة اللّمّاعة. إنّها لعمري أمهر الصّنّاع وأدقّ الصّاغة*.

15 - فوائد مطالعة المرآة

علينا إذن إمّا اتّباع رأي أجسيلاس* اللّخدمونيّ الذي لعدم ثقته بوسامته لم يكن يقبل أن تُرسم أو تُسبك له صورة، أو إن بدا لنا أفضل أن نساير عادة كلّ النّاس الآخرين الذين لا يستنكفون مثله من التّماثيل والصّور فلِم تعتبر رؤية صورة المرء في الحجر أفضل منها في طلاء القصدير، وفي لوحة أفضل منها في مرآة؟ أتَعدّ من الشّائن أن يستطلع المرء بين الحين والحين صورته في المرآة؟ ألا يُروى، بالعكس، أنّ الفيلسوف سقراط* وصّى تلاميذه بالإكثار من تأمّل أنفسهم في المرآة، ليجد من أوتي منهم حسنا مسرّة في حسنه ويعتني به كثيرا فلا يصِم بقبح خُلقه كرم خلقته، ويجتهد في المقابل من يجد نفسه أقلّ فتنة بمنظره لإخفاء دمامته بزينة الفضيلة والخصال الحميدة. هكذا إذن كان أحكم النّاس جميعا يستخدم المرآة حتّى لتعليم

مكارم الأخلاق. ومن لا يعلم أنّ ديمُستين* أفصح الخطباء كان يعدّ خطبه دوما أمام المرآة كما أمام معلّم؟ هكذا نرى ذلك الخطيب الفذّ الذي درس البلاغة على أفلاطون وتعلّم الجدل من إيوبوليدس* المنطيق طلب من المرآة مطابقة المقال للمقام بالوجه الأتمّ.

مَن يجب إذن في نظرك أن يولي عناية أكبر بطلعته عند إلقاء كلمته: الخطيب مقارع الحجج أم الفيلسوف مقرّع الرّذائل*، من يجادل لبرهة أمام محلّفين اختيروا بالقرعة أم من لا ينقطع عن تعليم كلّ البشر، من ينازع حول الحدود بين الحقول أم من يعلّم النّاس الحدود بين الخير والشّرّ؟

ما لهذه الأسباب فقط ينبغي أن ينظر الفيلسوف إلى المرآة، فكثيرا ما يجدر به أن يتفحّص لا مشابهة صورته له فقط بل كذلك سبب ذلك الشّبه. فهل تنطلق منّا الصّور كما يقول أبيقور* مثلما تنسلخ جلود بعض الحيوانات منسحبة من الأجسام التي اقترنت بها، فإذا لاقت شيئا صلبا صقيلا ارتدّت منكفئة فتطابق الأصل بنحو انعكاسيّ؟ أو كما يفكّر فلاسفة آخرون تنساب الأشعّة من عيوننا، ثمّ، كما يرى أفلاطون، تمتزج بالنّور الخارجيّ وتتّحد به، أو كما يرى أرخيتاس* لا تحتاج بعد انطلاقها من العينين إلى أيّ سند خارجيّ، أو كما يعتقد الرّواقيّون تمرق في الهواء فإذا وقعت على جسم صلب ولامع وصقيل انعكست بزاوية تساوي زاوية سقوطها على سطحه عائدة إلى هيئتها فيرتسم داخل المرآة ما تمسّ وتلقى خارجها؟

16 - مسائل في البصريّات. السّخرية من إمليانوس

ألا ترون من واجب الفلسفة البحث والتّنقيب في كلّ هذه المسائل، والنّظر إلى كلّ المرايا، سواء كانت من مادّة رطبة أو جافّة؟ فضلا عمّا ذكرتُ، يجب التّساؤل أيضا لماذا في حالة المرايا المسطّحة يبدو المتأمّل وصورته متساويين تقريبا، بينما في المرايا المحدّبة والكرويّة تبدو كلّ الأشياء أصغر ممّا هي، وفي المقعّرة تبدو بالعكس أضخم؟ أين ولماذا تتمّ مبادلة الميامن بالشّمائل؟ لماذا تحتجب نفس الصّورة عن صاحبها في عمق المرآة تارة، وتبرز إلى الخارج طورا؟ لماذا تحرق المرايا المقعّرة عند تعريضها للشّمس دقاق الحطب الموضوعة قريبا منها؟ ما السّرّ في طيف ألوان قوس قزح، وظهور شمسين متنافستين ومتشابهتين*؟ هناك زيادة على هذه المسائل قضايا كثيرة أخرى تناولها في مؤلَّف ضخم أرخميدس* السّيرقوسيّ، وهو رجل يستحقّ لا شكّ فائق الإكبار أكثر من أيّ سواه لفطنته العجيبة في كلّ مواضيع الهندسة. لكن لا أدري إن كان أَوْلى النّاس بالتّنويه لهذا السّبب بالذّات أو لأنّه كان ينظر كثيرا وبانتباه إلى المرآة. لو كنتَ يا إمليانوس تعرف هذا الكتاب، ولم تقفْ وقتك على الحقل والأرض فقط، بل خصّصتَ منه كذلك للوح الحساب ومسحوق الرّسم*، لكنتَ بلا شكّ- صدّقني ومع أنّ وجهك المريع لا يختلف عن قناع تِيَسْتيس* المأساويّ- تنظر السّاعات الطّوال في المرآة تحدوك رغبة في التّعلّم، وتدع المحراث أحيانا لتنظر متعجّبا إلى كلّ الأثلام التي اختطّتها في وجهك التّجاعيد.

أمّا أنا فلن أعجب إن أبديتَ لي امتنانك لحديثي عن خلقتك

البشعة وصمتي عن خُلقك الأبشع بشأو. والسّبب هو هذا: فضلا عن كوني بطبعي غير ميّال إلى الخصام، ما زلتُ إلى عهد قريب أجهل، وبكلّ سرور، هل أنت أبيض أم أسود، وحتّى الآن لا أعرفك وحقّ هرقل* بما فيه الكفاية. والسّبب أنّك نكرة مغمور جرّاء انقطاعك لحياة الرّيف وانشغالي من جهتي بالدّراسة. هكذا حالَ خمول ذكرك دون وضع أحد لك على محكّ التّجربة، وأنا من ناحيتي لم أسع أبدا إلى معرفة سيّئات أعمال أيّ أحد، بل فضّلت دوما إخفاء عيوبي على تلقّط عيوب الغير. وأتتْ نتيجةُ ذلك وبالا عليّ ولصالحك، إذ اتّفق أنّ أحدنا يقف تحت الأضواء والآخر يراقبه من منطقة الظّلّ. فلا عجب أن تستطيع بهذه الطّريقة الحكم بسهولة من خفاء موقعك المظلم على ما أفعل علنا وأمام الملإ، بينما أنت في ضعتك التي تخفيك عن الأنظار وتنأى بك بعيدا عن الأضواء لا تظهر لي بالمثل.

17 - قلّة عدد الخدم مفخرة لا مثلبة

حتّى أنّي مثلا لا أعرف ولا أحاول أن أعرف إن كنتَ تستخدم أرقّاء لزراعة حقلك أو تتبادل بالأحرى هذه الخدمات مع جيرانك. بينما تعلم أنت أنّي عتقتُ في نفس اليوم ثلاثة أرقّاء في أويه*. الأمر الذي عابه عليّ محاميك بين أمور أخرى كشفتَها له بشأني، وإن كان قبل ذلك ببرهة وجيزة قال إنّي جئتُ إلى أويه برفقة عبد واحد. فليتك تجيبني كيف أمكنني انطلاقا من واحد عتق ثلاثة. إلاّ إن يكن هذا هو الآخر سحرا! أأقول إنّ هذا عمى وتعام، أم ترى هو عادة الكذب المتأصّلة؟* "جاء أبوليوس إلى أويه برفقة عبد واحد له". ثمّ بعد النّقنقة ببضع كلمات: "عتق

أبوليــوس فـي أوية ثلاثة عبيد في يوم واحد". كان يمكن بالتّحقيق تصديــق ذلك لو قال إنّي جئت مــع ثلاثة عبيد وعتقتهم جميعا. بل حتّى لــو فعلتُ ذلك. لماذا ترى العبيد الثّلاثة عنوان الفقر بدلا من اعتبار عتق ثلاثتهم أمارة الغنى؟

قطعــا أنــت لا تعرف يا إمليانــوس. كلاّ لا تعــرف كيف تتّهم فيلسوفا. إذ تنعى عليه قلّة الخدم التي حتّى لو لم تكن حقيقيّة لكان عليّ التّظاهر بها طلبا للمجد. فأنا أعرف. لا فلاسفة فقط. بل ومعهم عددا من قادة الشّــعب الرّومانيّ زادتهم قلّة خدمهم عزّة وفخارا. أمــا قرأ محاموك على الأقلّ هذه الأخبار: كان لمرقس أنطونيوس* أيّام قنصليّته ثمانية عبيد في البيت فقط. بل كان لكربــون* مع كلّ نفوذه ما يقلّ بواحد عن هذا العدد. بل لم يكن لمانيوس كوريــوس* صاحب السّــجلّ الحافل بالانتصــارات والذي اجتاز نفس باب المدينة على رأس ثلاثة مواكب نصر ســوى تابعينْ لخدمته في المعســكر؟ هكذا كان لذلك الرّجل غالب السّابينيّن* والسّــمنيّين* وبيــرّوس* من الخدم أقلّ ممّا له مــن الانتصارات. أمّا مرقس كاتون* فلم ينتظــر أن يتحدّث عنه الآخرون. بل كتب في خطبتــه أنّه لمّــا انطلق إلى إســبانية كقنصل جلــب من رومية ثلاثــة خدم فقــط. وبعد وصوله إلى بيت حكومــيّ. بدا له العدد قليلا. فأمر بشــراء غلامين من القصبة* لخدمة السُّــفرة. وحمل خمستهم معه إلى إسبانية. لو قرأ بودنس ذلك. علــى ما يبدو لي. لتخلّى تماما عن هذا التّشهير بي أو لفضّل مؤاخذتي على الأرقّاء الثّلاثة باعتبارهم كثرة لا قلّة من الرّفاق لفيلسوف.

18 - مدح الفقر

ثمّ إنّه عاب عليّ كذلك الفقر. وهي تهمة يقبلها الفيلسوف مســرورا بل ويحــبّ إعلانها أمام المــلإ. فالفقر خادم الفلســفة الزّاهد القنــوع مالك القليل خصيم الفخــار المغني عن الثّروات اللّيّن العريكة البسيط العيش المشير بكلّ صلاح. لم ينفخ أحدا قطّ بالكبرياء ولا أفســد أيّا بالتّســاهل ولا بلّده بالجبروت. لا رغبة ولا قِبَــل له بمــلاذّ البطن والفــرج. فإنّما اعتاد عليهــا وعلى مخاز سواها أبناء الأغنياء. ولو أحصيتَ كبريات الجرائم التي حفظتها كلّ ذاكرة إنســانيّة لن تجد ضمن مرتكبيها أيّ فقير. تماما كما لا يوجد عرضا أغنياء بين مشــاهير الرّجال. بل أيّاً نُكبرُ على مكرمة تجِد الفقر ربّاه من المهد.

أقــول إنّ الفقــر كان عبر القرون الماضية مؤسّــس كلّ المدائن ومبتكــر كلّ الفنون. خِلوا مــن أيّ عيب وافي الحظّ من كلّ مجد. محــلّ ثناء وإجلال لــدى كلّ الأمم. الفقر هذا عينــه هو الذي كان عند اليونان استقامة في أرستيدس* وحلما في فوكيون* وبأسا في إيبامِنُنداس* وحكمة في ســقراط وفصاحة في هوميروس*. وهو الذي وضع الأســس لســلطان الشّــعب الرّومانــيّ. واعترافا بفضله ما زال يقدّم حتّى اليوم القرابين للآلهة الخالدين في قدح وجفنة مــن الفخّار. ولــو كان يجلس للحكم في هــذه القضيّة قيّوس فبريكيوس* وغناطوس شــبيون* ومانيوس كوريوس الذين مُهرتُ* بناتهم بسبب فقرهم من المال العامّ فرحن إلى أزواجهنّ حاملات مجد أُســرهنّ ومال الخزينــة العامّــة. أو بُبليكولا* طارد الملــوك وأغريبّا* مُصالح الشّــعب اللّذان أعدّ الشّــعب الرّومانيّ

جنازتيهما لقلّة مواردهما بجمع التّبرّعات بالدّوانيق، أو أتيليوس ريقولوس* الذي زُرع حقله الصّغير على نفقة الدّولة لقلّة ذات يده هو الآخر، أو أخيرا لو بُعثتُ للحياة فترة وجيزة لسماع هذه المحاكمة تلك السّلالات العريقة منجبة القناصل والرّقباء والقادة المظفّرين، أتجرؤ على تعيير فيلسوف بالفقر بين قناصل فقراء؟*

19 - مضرّة الغنى المفرط

أم هل يبدو لك كلوديوس مكسيموس سامعا متسامحا لتهزئتك الفقر لأنّ القدر منّ عليه بثروة وافرة واسعة؟ تخطئ يا إمليانوس ولا يجديك قطّ هذا التّفكير إن تقسْ قيمته بإنعام الحظّ لا بمنظار الفلسفة المتفحّص. إن لم تر رجلا بمثل جدّ نهجه في الحياة وخدمته الطّويلة أميلَ إلى يُسر الحال المنضبط منه إلى الثّراء المتسيّب ويجد في الحظّ ثوبا أنيقا أكثر ممّا هو طويل، إن لم يحمله لابسه بل جرّه فهو أيضا كرفل الرّداء تماما يتدلّى أمامه فيعرقله ويدعثره. ولا غرو ففي كلّ الوسائل المستخدمة لأداء شتّى وظائف الحياة يعود كلّ ما زاد عن الحدّ المعقول بالمضرّة لا المنفعة. لذا فالثّروة الطّائلة كالدّفّة الضّخمة العملاقة تُغرق أكثر ممّا تقود. وفُرتُها لا تنفع وزيادتها عن الحدّ تضرّ. وإنّي لأرى الأخلق بالثّناء بين أولئك الأغنياء من يعيشون عيشة وسطا بدون ضجّة ولا استعراض لأموالهم، ويتصرّفون في ثرواتهم الضّخمة بدون تبجّح ولا تكبّر، متشبّهين في نمط عيشهم بالفقراء. فإن كان الأغنياء أنفسهم يطلبون من باب التّواضع والوسطيّة، مظاهر الفقر وسماته، لِم يخجل به من خبِره لا

كمظهر متكلّف بل كواقع فعليّ؟

20 - الفقر والغنى الحقيقيّان

بإمكاني هنا حقّا مجادلتك حول تسمية الفقر أصلا. فما بالفقير حقّا من لا يحبّ الكماليّات ويملك الضّروريّات، التي هي وفق الطّبيعة قليلة جدّا*. فإنّما يملك الكثيرَ من يبتغي القليل، ويملك قدر ما يبتغي من يبتغي الحدّ الأدنى. لذا يحسن أن يقدَّر ثراء الإنسان بالنّظر إلى نفسه لا إلى أملاكه وأرباحه. فإن يك من حرصه في عوز، وفي لهفة على الرّبح أيّا كان مصدره، ولا تُشبع جشعه جبال من الذّهب، بل يظلّ دوما يستزيد ليضمّ شيئا إلى رصيده السّابق، فذاك حقّا هو الإقرار بالفقر*. لأنّ الرّغبة في امتلاك أيّ شيء تنبع من فكرة الاحتياج، ولا يهمّ حجم ما ينقصك. لم يكن لفيلوس* قدر ما لإيليوس*، ولا لإيليوس قدر ما لشبيون* ، ولا لشبيون قدر ما لكراسّوس ديوَس* لكن حتّى كراسّوس لم يكن يملك قدر ما يشتهي. هكذا رغم تفوّقه على الجميع تفوّق عليه جشعه وهو يبدو غنيّا للجميع إلاّ لذاته. بينما لم يكن الفلاسفة الذين ذكرتُ يريدون فوق ما يملكون، بل تطابقت رغائبهم مع وسائلهم، فعاشوا بحقّ في سعة وسعادة. تجعلك شاهية التّملّك فقيرا والقناعة غنيّا: فسمة الفقر الرّغبة وسمة الغنى الشّبع. فإن شئتَ يا إمليانوس اعتباري فقيرا لا بدّ أن تعلم قبل ذلك أنّي أحرص على امتلاك المزيد. لكن إن لم يكن يعوز نفسي شيء، فلا يضيرني كم ينقصني من الأشياء الخارجيّة التي ما وفرتها بمحمدة ولا ندرتها بمذمّة.